الحجّ الإبراهيمي و الحجّ الجاهلي

الدكتور صادق آئينه‌وند
جامعة تربيّت مُدرِّس

لآلِ رَسُـــولِ الله بِـــالخَيْفِ مِـــنْ مِـــنى وَبِـــالرُّكْـــنِ وَالتَّـــعْريفِ وَالْجَـــمَراتِ
دِيـــارُ عَـــلِيٍّ والحُسَـــيْنِ وَ جَـــعْفَرٍ وَ حَمْـــزَةَ وَالسَـــجَّاد ذِي الثَّـــفناتِ
وَ سِـــبْطَيْ رَسُـــولِ اللهِ وَابْـــني وَصِـــيِّه وَ وَارِثِ عِـــلْمِ اللهِ وَالْحَسَـــناتِ

«دعبل بن علي الخزاعي»

المقدمة:

إنّ أُصول الحجّ الإبراهيمي: هي تلك التي شرّعها الدين المبين، و من الصعب الوصول عبر النصوص والوثائق الباقية ـ باستثناء القرآن الكريم ـ إلى شيءٍ يمكنه رسم حقيقة تلك الأُصول. ولكن في ضوء تعدد التفاسير، التي تقدمها المذاهب الاسلامية حول أداء الحجّ وفق نهج إبراهيم الخليل (عليه السلام)، و كما يدعو إليه الدين المبين، و بالتحديد ما يتعلّق بالنواحي السياسية والاجتماعية والتولّي والتبرّي، نجد من المناسب البحث فيما وصل إلينا عن شعائر الحج الابراهيمي و مناسكه، خصوصاً و ان هذه التفاسير لم تكن بمنأى عن التأثر بتقادم الأزمنة و هيمنة الأمويين والعباسيين، والأجواء السياسية والاجتماعية التي ترتبت على سلطة كلّ منهما، علاوة على انحياز بعض العلماء والفقهاء الذين عدوّا أنفسهم مرتبطين بجهاز الحكم إبّان العهدين الاموي والعباسي.

إن ما يمكنه تفصيل الحج الابراهيمي، و نفخ الروح والمحتوى فيه، هو المضامين والمناسك، والتي يجب دائماً التمسك بها و اللجوء إليها، و بالحضور الديني بالحج تحقيق صدور رؤية إبراهيم الخليل (عليه السلام) و محمّد الحبيب (صلّى الله عليه وآله وسلّم). و إلاّ فانّ التمسك الظاهري في اقامة المراسم والمواسم يذكّر بالحجّ السهل الذي ادّاه أبوسفيان أيضاً. لأنّ الحجّ بالمعنى العامّ لايختصّ به الاسلام، إنّ ما أمر به الاسلام و

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-05-03]
[DOR: 20.1001.1.23834269.1415.6.12.3.3]

الحجّ الإبراهيمي و الحجّ الجاهلي

أصرّ عليه، هو الحجّ الابراهيمي من بين الحجّ الجاهلي والحجّ الحنيفي و الحجّ الصابئي.

حجّ إبراهيم (عليه السلام):

«و الشائع في الأخبار و الروايات العربية القديمة أن الحجّ، على زمن إبراهيم عليه السّلام، كان يعنى قَصْدَ كعبة مكّة و الطّواف بالبيت و التلبيةَ و قضاءَ بقية المناسك، ثم جاءت الوثنية بأصنامها و بيوتها و عباداتها فصار الحجُّ يشملها أيضاً»[1]

(وَ إِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَ طَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْقَائِمِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ* وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَ عَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ)[2]

«أنّ إبراهيم و إسماعيل (عليهما السلام) هما اللّذان بنيا الكعبة بيت عبادة لله، و أنّ حرمة الكعبة و منطقة مكّة و تقاليد الحجّ و طقوسه المتنوعة في هذه المنطقة من سنن إبراهيم»[3]

و قد أخذ الأقوام الآخرون ـ الذين عاشوا بألف سنة قبل ميلاد المسيح (عليه السلام) ـ بهذه السُّنة؛ فكانوا يراعون حرمة مكة و الحرم.

يخمّن خبراء الكتاب المقدّس (العهد القديم و الجديد) و المتخصّصون في الأديان، أنّ إبراهيم و إسماعيل (عليهما السلام) عاشا نحو ألفي عام قبل الميلاد، و بذلك يكون قد مضى نحو ٤٠ قرناً على الظهور الحديث للكعبة بالبناء الإبراهيمي.

و عندما تحدّث ديو دورس Didorus of Sicily الذي عاش في القرن الأول قبل الميلاد، عن الأنباط، أشار إلى الكعبة بقوله: «إنّه مكان مقدسّ له حرمة و شهرة بين جميع العرب، هو مكّة»[4].

يعتقد بعض الباحثين، أنّ مفردة «مَكُورابا» (Macoraba) و التي تلفظ في اليونانية «مقوروبا» و التي أراد بها اليونانيون اسم مدينة، و تعني مكان التقرّب لله، تعني مكّة. معلوم أنّ كلمة «مَكْرُب» هي مفردة دينية قديمية استعملت قبل ألف عام من تأسيس حكومة السبأ.

و قد أشار بَطْلَميوس (Ptolemy) الفلكي و الجغرافي الذي عاش في القرن الثاني للميلاد إلى هذه المفردة[5].

على هذا الأساس يمكن القول: أنّ مفردة «مكة» تمثّل صفةً و نعتاً لبيت الله و لا تعني اسماً خاصّاً. لكنّها إثر الاستعمال و الشهرة حلّت مكان الاسم، مثل القدس إذ حلّت الصفة محلّ اسم العلم. و كلمة «بكّة» تعادل «مكّة»، فحسب رأي الدكتور جواد علي أنّ الكلمتين تمثلان تسميةً واحدةً، ففي لهجات القبائل تأتي الباء بدل الميم بالقلب و الابدال، و بخاصّة في لهجات جنوب الجزيرة العربية[6].

يرى بعض المحققين أنّ مفردة «بكّة» تعني الوادي.

(إنّ أول بيت وضع للناس للذى ببكّة مباركاً و هُدى للعالمين).

جاء في القاموس: «بكّةُ» تقال لمكّة، أو لما بين جبليها؛ نرى أنّ مفردة «بَكْ» سامية قديمة، و كلمة «بُقعاه» عبرية و تعني الوادي، و قد أُطلقت على الوادي الواقع بين لبنان الساحلي و لبنان الشرقي و الذي أسماه الروم سورية المنخفضة.

«و إنّ مدينة بعلبك مشهورة، و هي من الكلمات المركبة تركيباً مزجياً من «بعل» [إله قديم] و «بك» [الوادي] و معنى بعلبك إله الوادي»[7]: و هو نفس الاسم الذي أُطلق على هذه المدينة تيمّناً بآلهة الساميين المعروفة و يُطلق اليوم على هذا الوادي اسم البقاع، و الذي يمرّ نهر الليطاني عبره.

أطلق القرآن الكريم على مكّة اسم «أُمّ القرى»[8] و «قرية»[9]، قارنها بالطائف: (وَ قَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ)[10].

و قد ذكر أغلب المفسرين أنّ المراد من القريتين هما مكّة و الطائف[11].

و قال المسعودي في مروج الذهب: «و قد كان إبراهيم قدم إلى مكّة و لإسماعيل ثلاثون سنة حين أمره ببناء البيت»[12].

إنّ ما يسترعي الاهتمام من الناحية التاريخية، هو ما نقله

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-05-03]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1415.6.12.3.3]

مـينغانا (mingana) عـن راهب سُريـاني يـدعى نَـرْسَيْ (Narsai) بشأن نـزاع اولاد هـاجر في (بـيت عـربايا) في الحدود الشامية، و هذا الخبر يمثل أوّل نقل عن شخص من أهل الكتاب (تُوفّي في سنة ٤٨٥ للميلاد) أفاد فيه بـوجود قريش في شمال الجزيرة، و هو يتطابق مع ما أورده النّسابون و الأخباريون العرب، في إرجاع نسب قريش إلى إسماعيل (عليه السلام)[١٣].

جاء في الآيات (١٤٠ ـ ١٥٠) من سورة البقرة المباركة و التي استنكرت دسائس اليهود بين المسلمين بشأن تـغيير القبلة من القدس إلى الكعبة، قوله تعالى: (و ان الذين أُوتوا الكتاب ليـعلمون أنّـه الحـقّ مـن ربّهـم و مـا الله بـغافلٍ عـمّا يعملون)[١٤].

و فيه إشارة قبل كلّ شيء إلى علم اليهود بأفضلية الكعبة و أقدميتها، كقبلة. ممّا يعني أنّهم كانوا يـقرون قـبل ظـهور الاسلام بفضائلها و سوابـقها و اتـصالها بـابراهـيم (عـليه السلام) و قد حدّثوا العرب بذلك.

لم يسجّل التاريخ ما يقود إلى اليقين في الحجّ الابراهيمي الصحيح غير ما علّمه القرآن الكريم.

و الحجّ الحنيفي الذي يدّعي محاكاة حجّ ابراهـيم (عـليه السلام)، فعلاوة على أنّه جُعل ليقابل حجّ المشركين و عُمل به في أجواء الشرك الجاهلي، فهو غير واضح، كما أنّ شبهة الشرك تكتنفه في بعض الحالات.

في عقيدتنا أنّ الحجّ الابراهيمي هو حجّ الاسلام، إلاّ أنّ قيمة هذا الحج و مكانته تُدرَك عندما نـتعرّف عـلى الحـجّ الجاهلي و حجّ المشركين، و نجـري مـقارنة بـينهما، كـي لا تتحرك ـ و العياذ بالله ـ تلك الرواسب البـاقية في أذهـان المسلمين، و تطرح مقابل الحجّ الابراهيمي الذي أمر به القائد الكبير للثورة و مـؤسّس الجـمهورية الاسـلامية في إيـران سماحة الامام الخميني ـ قدّسنا الله بسره العزيز ـ و أُقيم للمرة الأُولى في هذا العصر.

لم يتّفق المؤرّخون السابقون على رأي واحد بشأن دخول الشرك و انتشاره في الجزيرة العربية، فبعضهم مثل هشـام الكلبي رأى في كتاب «الأصنام»: «أنّ إسماعيل بن إبراهـيم (صلّى اللهُ عليهما) لما سكن مكة و ولد له بها أولاد كثيرٌ حتى ملأوا مكة و نفوا من كان بها من العماليق، ضاقت عليهم مكة و وقعت بينهم الحروب و العداوات و أخرج بعضهُم بعضاً، فتفسّحوا في البلاد لالتماس المعاش.

و كان الذي سلَخَ بهم إلى عبادة الأوثان و الحجارة أنّه كان لايظعنُ من مكة ظاعنٌ إلّا احـتمل مـعه حَـجَراً مـن حجارة الحرم، تعظيماً للحرم و صبابة بمكّة»[١٥].

و قد أدّى هذا العمل على المدى الطويل إلى نشوء صناعة الأصنام و عبادتها و بالتالي ساد الشرك الجزيرة.

و كانوا في ديار الغربة يدورون حول هذه الأصـنام، و يطوفون حولها كما يطوفون حول الكعبة. إلّا أنّ هشام يضيف قائلاً: «و هم بـعدُ يـعظمون الكـعبة و مكّـة، و يحـجّون و يعتمرون، على إرث إبراهيم و إسماعيل (عليهما السلام)»[١٦].

و في الأسباب الكامنة وراء الميل نحو الشرك و تغلّبه على دين إبراهيم، رأى هشام أنّها تتمثّل في توغّلهم و اهـتمامهم الشديد بالأصنام، موضّحاً أنّه رغم كلّ ذلك كانت ثمة بقايا مناسك من عهد إبراهيم و اسماعيل (عليهما السلام) قام أهل الجاهلية بأدائها بعد أن مزجوها بتقاليد الشرك، فبدأ الحـجّ الجاهلي بمعناه الدقيق من ذلك الحين:

«و فيهم على ذلك بقايا من عـهد إبـراهـيم و إسماعـيل (عليهما السلام) يتنسّكون بها: من تعظيم البيت، و الطواف به، و الحجّ، و العمرة و الوقوف على عرفة و مزدلفة، و إهداء البُدن، و الإهلال بالحجّ و العمرة، مع إدخالهم فيه مـا ليس منه»[١٧].

مناسك الحجّ في الجاهلية:

كان الحجّ في الجاهلية يبدأ من اليوم التاسع من شهر ذي الحجّة، عندما تشارف الشمس على الغروب، و قبله يجتمع الناس لأغراض التجارة في سوق عكاظ خـلال شهـر ذي القعدة لمدة عشرين يوماً، يتوجّهون بعد انقضائها إلى سوق المَجنّة حيث يمكثون فيه حتى نهاية الشهـر وهـم يمـارسون

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-05-03]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1415.6.12.3.3]

معاملاتهم التجارية، و إذا هلّ هلال ذي الحجّة انطلقوا إلى ذي المجاز ليواصلوا فيه البيع و الشراء على مدى ثمانية أيام، و في اليوم التاسع ينادي المنادي فيهم: «تروّوا بالماءِ لأنّه لا ماءَ بعرفة و لا بمزدلفة».

و بهذه المناسبة سُمي هذا اليوم بيوم التروية، و هو اليوم الذي ينتهي فيه موسم أسواق الحجّ الجاهلي[١٨].

في اليوم التاسع من ذي الحجّة يصل الحجاج إلى عرفة، و يرتدون اللباس الخاصّ بالحج كما أورد الجاحظ: «كانت سيماء أهل الحَرَم إذا خرجوا إلى الحِلّ في غير الأشهر الحرم، أن يتقلّدوا القلائد و يُعلّقوا عليهم العلائق، فإذا أوْ ذَمَ أحدهم الحجّ تزيّا بزيّ الحاج»[١٩].

و يقومون بالتّلبيد قبل ذهابهم إلى المواقف. و التلبيد عبارة عن وضع الحاجّ مزيجاً من الخطمي و الآس و السدر و مادة صمغية على شعر رأسه و ذلك للحيلولة دون تسريحه و دون قتل القمل، و قد وصف امية بن أبي الصلت الحجاج الذين تلبّدوا بقوله:

شاحِينَ آباطَهُم لَمْ يَنْزِعوا تَفَثاً
و لَم يَسُلّوا لَهُم قُمْلاً و صِئْباناً[٢٠]

المواقف:

الموقف الأوّل، هو عرفة كما ذكرنا إذ يصلونه في اليوم التاسع من ذي الحجة.

و قد ذكروا وجوهاً مختلفة بشأن اسم «عرفة» منها.

أنّ جبرئيل كان يطوّف إبراهيم في المشاعر، و يعلّمه المواضع و هو يقول: عَرَفتُ، و منها أنّ آدم و حواء بعد الهبوط عرف أحدهما الآخر في هذا المكان، و منها أنّ الناس يتعارفون في هذا الموضع[٢١].

قال ياقوت: «و قيل: بل سمّي بالصّبر على ما يكابدون في الوصول إليها، لأن العرف الصبر؛ و يقال: إنّ الناس يعترفون بذنوبهم في ذلك الموقف»[٢٢].

«و يقارن هوتسما (Houtesma) الوقوف بعرفات بوقوف اليهود على جبل سيناء، حيث كان يتجلّى معبودهم بالبرق و الرّعد، و ان كنّا لاندري شيئاً عن إله عرفات، و لربّما كان نفسه إله المزدلفة «قُزح» [إله البرق و العواصف و الرّعد و الغيث] الذي عبده الأدميون من قبل ولم يبق من ظواهر عبادته بين الجاهلين إلا إشعال نيرانه بمزدلفة»[٢٣].

و كان لكلّ قبيلة موقف خاص بها في عرفة، و لم يبق الآن إلاّ أسماء بعضها، لأن وحدة صفوف الحجاج في الاسلام دون تمايز، أدّت الى اندثار أسماء تلك المواقف.

من المواقف الخاصّة التي ما زالت باقية موقف نَفْعَة الخاصّ بقبيلة ربيعة و الذي ورد في شعر لعمر و بن قَمِيئَة:

وَ منزلةٍ بالحجّ أُخرى عَرَفْتُها
لها نَفْعَةٌ لا يُستطاع بُروحُها[٢٤]

كانت قريش و كذلك أهل مكّة يرون أنفسهم أفضل من غيرهم من العرب، فيختارون موقفهم بالقرب من مكان الأضاحي في مزدلفة في موضع اسمه نَمِرة.

و كانوا يعظمون جبل «إلال» في عرفة و يقسمون به، و قد ذكر في شعر النابغة في عدّة أماكن، كذلك أورده طُفيل الغنوي في شعره بقوله:

يَزُرْنَ إلالاً لا يُنَصِّبْنَ غيره
بكلّ مَلَبٍ أشعثِ الرأس مُحرمِ[٢٥]

و كانوا يطلقون على الانتقال السريع من عرفة إلى مزدلفة تسمية الإفاضة أو الإجازة، و كان هناك أشخاص يتقدمونهم ليهدوهم السبيل.

وروى ابن هشام في سيرته «كان الغوث بن مُرّ بن أدّ بن طابخة بن إلياس بن مُضر يلي الإجازة للنّاس بالحجّ من عرفة، و ولده من بعده؛ و كان يقال له ولولده صُوَفة»[٢٦].

و في وجه التسمية قالوا: إنّ أُمّه عندما ربطته بالكعبة وضعت عليه قطعة من الصوف.

و ممّا رُوي عن ابن عباس في الحجّ الإبراهيمي، أنّ النبي (صلّى الله عليه و آله و سلّم) منع من الحركة السريعة و أمر بالسكينة إذ قال (صلّى الله عليه و آله و سلّم): «أيها الناسُ،

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-05-03]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1415.6.12.3.3]

عليكم بالسكينة، فإنّ البرّ ليس بالإيضاع»[٢٧].

و كما نقل الأزرقي، فان أول من أشعل النار فوق جبل قُزَح كان قصي بن كلاب، حيث استمر هذا الأمر حتّى ظهور الاسلام، و لعلّ الهدف من اضرام النيران هناك هو إرشاد الحجاج، إذكان من الممكن أن يحلّ الظلام قبل أن يصلوا إلى المزدلفة[٢٨].

و كان الجميع يجتمعون في المزدلفة الواقعة بين عرفات و منى، حتى قريش و المكّيون كانوا ينضمّون إلى المجتمعين، و كانوا يمضون الليل بالدعاء و التلبية بانتظار طلوع الشمس، وكان البعض لعجلته يخاطب جبل ثبير الذي تشرق الشمس من خلفه بقوله: «أشْرِقْ ثبير، كيما نُغير».

و تكون الافاضة في الحجّ الابراهيمي من عرفة بعد الغروب، و من مزدلفة قبل طلوع الشمس، خلافاً لحجّ المشركين.

و قد أشار أبو ذُؤيب الهُذلي إلى مبيت المشركين في مزدلفة، و انتقالهم منها إلى منى في شعرٍ له وصف به حاجّاً مشركاً أدّى أعماله متعجّلاً ليشتري العسل، إذ قال:

فَباتَ بجمعٍ ثم تمّ إلى منىً
فأصبح راداً يبتغي المزج بالسِّحْل[٢٩]

إنّ التاريخ لا يحدّثنا بشيء عن سبب الاسراع في العبور من مزدلفة إلى محلّ الهدي بمنى، لكنّ بالإمكان الحدس بأنّه كان للحصول على مكان مناسب، أو للتعجيل في الهدي.

و في المزدلفة أيضاً كان الصُوفة يقومون بالإضافة، التي كانت تتكفّلها أُسر أُخرى من القبائل أيضاً.

موقف منى:

بعد وصولهم منى ينحر المشركون الهدي، و يستمر ذلك من الصباح حتى الغروب. و كانوا يرمون الحجارة في مكانين خاصّين هما المُحصَّب و الجمار كي لا يمكن لأهل مكة أن يزرعوا شيئاً فيهما، و معلوم أنّ هذه الأحجار يجب أن تكون كبيرة لتجعل الأرض غير صالحة للزراعة تماماً، فهي تتفاوت مع الأحجار الصغيرة التي تستعمل في الحجّ الابراهيمي لرمي الجَمَرات.

يبدو أنّ أهل الجاهلية يخرجون من الإحرام بعد النحر و الرمي في منى، و هذا المفهوم يُستفاد من شعر نقله الجاحظ في كتاب الحيوان لعبدالله بن العَجْلان.

بعد النحر يتوجّه المشركون إلى الرمي، إلّا أنّ هذا العمل منوط بإجازة الصوفة الذين يتكفّلون أمر الافاضة من عرفة و مزدلفة، و أُولئك لا يرمون حتّى تقترب الشمس من الغروب[٣٠].

ثمّة بيت في كتاب المفَضّليّات عن الشنفرى الشاعر الجاهلي الصعلوك، وردت فيه كلمة الجمار:

قتلنا قتيلاً مُهْدياً بمُلَبِّدٍ
جمار منى وَسط الحجيج المُصَوِّت[٣١]

بعد الفراغ من الرمي، يحبسون الحجاج في العقبة، و لا يسمح لأحد بالحركة حتّى يعبر الصُوفَة، الذين بعبورهم يتحرّك الحجاج بعدهم.

و قد بيّن مُرّة بن خُليف الفهمي، شوق الحجاج للحركة و منع الصوفة لهم في هذا البيت من الشعر:

إذا ما أجازت صُوفَةُ النَّقبَ مِنْ مِنى
ولاحَ قتارٌ فوقه سَفَعُ الدَّم[٣٢]

تبدأ مراسم الحج، قبل الغروب من اليوم التاسع من ذي الحجة، و بعد عرفة و مزدلفة و إشعال النار فوق جبل قزح، و نحر الهدي و رمي الجمرات، تنتهي عند الغروب، أي إنّهم يكونون قد فرغوا من مراسم الحجّ في ليل العاشر من ذي الحجّة، يبقى دخول مكة و الطواف ثم يعود كلّ فرد إلى وطنه بعد أدائهما.

و كانت مراسم الحلق و التقصير تتمّ بعد التلبيد، و حسبما أورد صاحب تاج العروس، فقد كان اليمنيون يضعون على شعرهم الملبد الطحين أو مسحوق الحمص و السُّكر، ثمّ يحلقون، فيتساقط الطحين أو مسحوق الحمص فينتفع به

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-05-03]
[DOR: 20.1001.1.23834269.1415.6.12.3.3]

الفقراء[٣٣].

و لا بُدّ من معرفة أنّ الحلق و التقصير لا يكونان في منى و حسب، بل و كما قال هشام الكلبي: «كانت الأوس و الخزرج و من يأخذ بأخذهم من عرب أهل يثرب و غيرها يحجّون، فيقفون مع الناس المواقف كلّها، و لا يحلقون رؤوسهم. فإذا نفروا أتوا [مَناة]. فحلقوا رؤوسهم عنده و أقاموا و لا يرون لحجّهم تماماً إلّا بذلك»[٣٤].

الفوارق و الامتيازات:

إذا تمعّنّا في مراسم الحجّ الجاهلي من خلال التاريخ و الأدب المدوّنين، وجدنا ثمّة فوارق ناشئة عن شعور بعض القبائل بالفضل على سواها. و تتمثّل هذه الفوارق قبل كلّ شيء في طريقة أداء حجّ المشركين، الذي فقد طابعه الديني و وحدته، بسبب تأثير النزعة الاستعلائية للقبائل القوية.

و كان الحجاج في الجاهلية على ثلاثة أقسام: ١ ـ الحُمْس. ٢ ـ الحِلّة. ٣ ـ الطُلْس.

١ ـ الحُمس: كان القرشيون يرون لأنفسهم الأفضلية على سائر العرب، و لمجاورتهم مكّة كانوا يقولون: «نحن أهل الحرم، فليس ينبغي لنا أن نخرج من الحرمة، و لا نعظّم غيرها كما نعظّمها، نحن الحُمْس»[٣٥].

يتبيّن من هذا المقطع أن امتياز الحُمْس كان مختصّاً بسكّان الحرم من قريش، فقد جاء في كتاب المحَبَّر أنّ الحُمْس يطلق على «قريش كلّها، و خزاعة لنزولها مكّة، و مجاورتها قريشاً»[٣٦].

و قد ذُكر وجهان في المعنى اللغوي لكلمة الحُمْس، إذ ورد أنّ: «الحُمْس جَمع أحْمَس و حَمِسٍ، من حَمِسَ: أي، اشتد و صَلُبَ في الدين و القتال، و قيل: إنّهم لقبوا بذلك لالتجائهم بالحَمْسَاء، و هي الكعبة، لأنّ حَجَرَها أبيض إلى السواد»[٣٧].

و ما أوجده الحُمْس في الحجّ هو ترك الوقوف في عرفة و الإضافة منها إلى المزدلفة، فهم في الوقت الذي يقرّون فيه بهذه المناسك، يقولون: نحن أهل الحرم لا ينبغي لنا الخروج من الحرم و تعظيم غيره؛ و عندما يقف الحجاج في عرفة، يقفون هم عند أطراف الحرم ثمّ يذهبون ليلاً إلى المزدلفة.

و قد ظلّ هذا الأمر حتّى ظهور الاسلام، إذ ألغته الآية (ثم أَفيضُوا من حَيْثُ أفاضَ النّاسُ..)[٣٨].

و من جملة الأعمال التي كان على قريش القيام بها رعاية للحُمْس هو أنهم: «لم يطبخوا إقطاً، و لم يدّخروا لبناً، و لم يحولوا بين مرضعة و رضاعها حتى يعافه، و لم يحركوا شعرا و لا ظفرا، و لا يبتنون في حجّهم شعراً و لا و براً و لا صوفاً و لا قطناً، و لا يأكلون لحماً، و لا يمسّون دُهناً، و لا يلبسون الا جديداً، و لا يطوفون بالبيت إلاّ في حذائهم و ثيابهم، و لا يمسّون المسجد بأقدامهم تعظيماً لبقعته، و لا يدخلون البيوت من أبوابها.»[٣٩].

و قد أشار القرآن إلى هذا الأمر، و نهى عنه في الآية (و ليس البر بأن تاتُوا البيوت من ظهورها، و لكن البر من اتق، و اتوا البيوت من أبوابها..)[٤٠].

و من تقاليد الحُمْس الأُخرى قولهم، إنّه لا يليق بغير أهل الحرم أن يتناولوا طعام غير الحرم في الحرم، بل عليهم إذا جاءوا للحج أو العمرة أن يأكلوا من طعام أهل الحرم إمّا من خلال الضيافة أو الشراء[٤١].

كذلك كان من الواجب على كلّ من أراد الطواف للمرة الأُوّلى، أن يطوف بلباس أهل الحرم، أي الحُمْس، و إن لم يجد ذلك طاف عريان[٤٢].

كذلك إذا تزوّج رجل من نسائهم فإنّ أولاده يكونون من الحُمْس، و لهذا الأمر بواعث سياسية و اقتصادية أيضاً، و قد تفاخر بعض شعراء الجاهلية بذلك.

٢ ـ الحلّة: و هم قبائل سكنوا خارج الحرم، أي في الحلّ، و عرفوا بالحلة، و كان الفرق بين أهل الحل و أهل الحرم في أن أهل الحل كانوا في ايام الحج يذيبون السمن، و يأكلون الإقط و اللحم، و يضعون الزيت على أجسامهم، و يلبسون من الصوف و الشعر، و يقيمون في الخيام، و يؤدّون المناسك بثيابهم، و بعد الفراغ و عندما يدخلون الكعبة يتصدّقون بنعلهم و ثيابهم، و يستأجرون للطواف الثياب من أهل الحُمْس[٤٣].

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-05-03]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1415.6.12.3.3]

٣ ـ الطُّلس: قيل إنّهم اليمنيون من أهل حضرموت و عكّ و عجيب و إياد بن نزار، و الوجه في تسميتهم هو مجيئهم من مناطق بعيدة و بالتالي طوافهم بالبيت و قد غطاهم الغبار[٤٤]. و كان هؤلاء يماثلون الحلة في الإحرام، و الحُمْس في ارتداء الثياب و دخول البيت[٤٥].

العُمْرة:

يأتي أهل الجاهلية من الحُمْس و الحلة و الطُّلْس إلى الكعبة لغير الحجّ أيضاً و ذلك لأداء العمرة، و كانوا يمتنعون عن التلبيد و يحلقون سلفاً خلافاً لما كانوا يفعلونه في الحجّ، و يعدون أداء العمرة في أيام الحج ذنباً كبيراً، و حسب الاعتقاد الجاهلي فان أداء العمرة في أشهر الحجّ، ذي القعدة و ذي الحجة و المحرّم، من الذنوب التي لا تغتفر، فهم يقولون:

«إذا برأ الدبُر و عفا الوَبَر، و دَخَل صفر، حُلَّت العمرة لمن اعتمر»[٤٦].

و لا فرق بين العمرة و الحج من حيث الاحرام و الطواف، بيد أنها لاتتضمّن الوقوف في عرفة و المزدلفة و منى، و رمي الجمرات.

السقاية و الرفادة:

لوقوع مكة في وادٍ غير ذي زرع، ولشحّة المياه فيها، فإن سعي القرشيين الرئيس في أيام الحج كان منصباً على توفير الماء للحجيج، و قد سمي هذا العمل بالسقاية. و قيل إنّ أول من سقى الحجيج هو قصي.

و المشكلة الثانية في هذه الايام بعد إيصال الماء هي الإطعام، و قد سمي هذا العمل بالرفادة. و قيل إنّ أول من قام به هو قصي أيضاً[٤٧].

و قد بقي هذا العمل لأولاد قصي، إذ تكفّل به من بعده هاشم بن عبد مناف، ثمّ ابنه عبد المطلب، ثمّ أبوطالب الذي عاصر ظهور الاسلام.

و قد شارك في هذا العمل أشخاص آخرون من غير هذه الاسرة، مثل عدي بن نوفل الذي عاصر عبد المطلب، و كان يسقي الحجيج في الصفا و المروة لبناًو عسلاً[٤٨].

الطواف و التلبية:

إن ما يسترعي الاهتمام و تتّضح فيه هوية الحجّ الجاهلي الحقيقيّة، هو محتوى التلبيات و ارتباطها بالاصنام، إذ لم يكن من حجهم بكل مظاهره غير حركات عابثة و أفعال لا معنى لها.

فأعمال الحج في واقعها رموز إلهية بروح توحيدية جاءت من الخليل محطم الأصنام، و أدت الغفلة عنها، و الغربة عن أسرارها و رموزها، و عدم فراغ القلب من سوى المطلوب، و الدوران دون حضور القلب، إلى الخسران.

و الأهم من كل ذلك هو الربط بين تلك الرموز و الشعائر، في تلك المواقف و المناسك، و بين العالم الخارجي الذي سيواجهه الحاج في الحج الابراهيمي، العالم الذي يحب أن يحياه ديناً و قلباً و دنياً وفق نهج إبراهيم (عليه السلام) و محمّد (صلى الله عليه و آله و سلّم) أي وفق الاسلام، و بالجمع بين هذه الثلاثة يكون قد سلك النهج الذي أطلقه الخليل (عليه السلام) و الحبيب (صلّى الله عليه و آله و سلّم).

كان حج المشركين حجاً جاهلياً، إذ كانوا يتوجهون بعد وصولهم مكة إلى الأصنام يظهرون لها خضوعهم، و في عرفة و المزدلفة و منى كانوا دائماً بذكرها أو بجوارها، ففي منى وضعت سبعة أصنام بالقرب من الجمرات الثلاث ليعظمها الحجيج بعدها، و كان مكان الأضحاحي (الهدي) في منى مليئاً بالانصاب إذ كان المشركون يمسحونها بدماء الأضاحي.

جاء في سيرة ابن هشام نقلاً عن معاوية بن زهير:

فأُقسم بالذي قد كان رَبِّي
و أنصاب لدى الجمرات مُغرِ[٤٩]

و بعد انتهاء الحج كانوا ينشرون لباس الاحرام حول الأصنام.

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-05-03]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1415.6.12.3.3]

إنّ ما يتحصّل من الأشعار و الآثار الجاهلية الباقية، هو أن أداء المناسك كان يترافق مع التلبية بصوت عال، و تجدر الاشارة إلى أنّه لم يكن ثمّة وجود للتلبية المختصة بحج إبراهيم (عليه السلام) و التي مفادها: لبيك اللّهمّ لبيك، لبيك لا شريك لك... بل إنّهم غيروا التلبية لتتوافق مع عقيدة الشرك لديهم، إذ كانت كالآتي:

لبيك اللهم لبيك! لبيك لا شريك لك! إلّا شريكٌ هو لك! تملكُهُ و ما مَلَكْ[٥٠]!

و يظهر في هذه التلبية الاعتقاد بالشريك، و قد كشف القرآن الكريم عن عقيدتهم المشركة في قوله تعالى: (وَمَا يُؤْمِنُ اَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إلّا وَهُمْ مُشرِكُونَ)[٥١].

و قد اعتبر ابن الكلبي أنّ هذه التلبية مختصة بنزار، بينما رأى ابن اسحاق و ابن حبيب أنّها مختصة بقريش، و قال الأزرقي إنّها متعلقة بكلّ المشركين، و ممّا لا شكّ فيه أنّ التلبية التي يؤديها أهل الحرم يمكن أداؤها من قبل أهل الحل.

و نقل اليعقوبي و الارزقي، أنّ كل قبيلة كانت أثناء الحج تهلل حول صنمها حتى تصل مكّة، «ذلك أنّ عبّاد كلّ صنم كانوا إذا أرادوا الحج، انطلقوا إليه، و اهّلوا عنده، و رفعوا أصواتهم»[٥٢]، و كذلك: «إذا أرادت حجّ البيت وقفت كلّ قبيلة عند صنمها، و صلّوا عنده»[٥٣].

و كان لعبّاد كل صنم من القبائل المختلفة تلبيات خاصة، و من بين هذه الأصنام كان لكل من اللات و العُزّى و مناة و هُبَل و ذو خَلَصة و ذو كفين و جهار و ذُرَيح و ذولبّا و سعيدة و شَمُس و مُحرِّق و مَرْحِب و نَسْر و يعوق و وَدّ و يغوث تلبية خاصة به، و هي مذكورة في المصادر التاريخية، و قد أحجمنا عن إيرادها مراعاة للاختصار.

و عدا هذه الأصنام، كان لقبائل كنانة و ثقيف و هُذيل و بجيلة و جُذام و عكّ و أشعر و ربيعة و قيس و عيلان و بني أسد و تميم و مذحج و هَمْدان و بكر بن وائل و بني معدّ و بني نَمر أصنامهم، و لها تلبيات خاصة أيضاً.

و كانوا يصفقون و يصفّرون لدى التلبية.

يمكن القول: إنّ الحج الجاهلي كان مزيجاً من الشرك و التفاخر القبلي، و الأغراض التجارية و الأهداف السياسية و القومية، لذلك سعت كلّ قبيلة أثناء الطواف لاستعراض مظاهر هذا المزيج غير المتجانس من خلال رفع الأصوات.

و قد عبر القرآن الكريم عن حركة المشركين هذه لدى الطّواف بقوله تعالى:

(وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إلّا مُكَاءً وَ تَصْدِيَةً)[٥٤].

و بعد منى كان المشركون يتوجّهون إلى مكة إذ يبقون فيها ثلاثة أيام، تسمى بأيام التشريق، و قد ذكروا أقوالاً في وجه تسميتها: منها طبخ لحم الأضاحي بأشعة الشمس، و منها نحر الأضاحي عند طلوع الشمس، و كانوا يهتمون بهذه الأيام لكنها لم تكن من أركان الحج الاساسية.

كان على غير أهل الحُمْس، أثناء الطواف إما أن يرتدوا ثياباً استعاروها أو استأجروها، و إما أن يطوفوا عراة، و هذا يتعلق بمن يأتي إلى الحج للمرة الأُولى.

و كان أهل الحل يتركون ثيابهم بعد الطواف في محل قرب مكة، و لا يحق لهم ارتداؤها مرة أُخرى، و تسمى هذه الثياب لَقّ[٥٥]، إذ لا يمكن الاستفادة منها بسبب تعرضها لأشعة الشمس و تغيرات الجو ورثاثتها.

كان الطواف حول البيت، دون ثياب أمراً دارجاً و كان يطاف حتّى النساء.

فقد نقل أن امرأة جميلة لم تجد ثياباً فاضطرت إلى الطواف عارية، ممّا دفع جمعاً كثيراً إلى الاحتشاد لمشاهدتها.

و نقل أيضاً أن بعض المشركين كانوا ينتهزون هذه الأيام، فيتحلقون حول الكعبة لرؤية هذه المشاهد، و كان خُفاف بن نُدبة يسعى لرؤية عشيقته، و كما قال فانه استطاع ان يراها عارية في هذه الأيام، إذ جاء عنه:

و أبدى شهور الحج منها محاسناً
و وجها متى يحلل له الطيب يُشرق[٥٦].

و يجب البحث عن جذور هذا الطواف في مصالح الحُمْس الذين سعوا عبر إيجاز الثياب و لمرة واحدة، أن يضمنوا لأنفسهم مصدرا مالياً، و كان أهل الحل في بعض الأحيان لا

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-05-03]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1415.6.12.3.3]

يستجيبون لهذا الأمر، إذ كانوا فقراء معدمين من جهة، و كانوا يرفضون الخضوع لامتيازات قريش و قراراتها الاستعلائية من جهة ثانية، و لمّا كان الغرض من الحج ترسيخ التقاليد القَبَلية و الجاهلية، فقد كانوا مستعدين لأن تطوف حتى نساؤهم عاريات.

و حسبما نقل ابن كثير فان الآية نزلت للحيلولة دون هذا العمل (يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجدٍ...)[٥٧].

و وضعوا إساف و نائلة قرب الكعبة، الأولى بجوارها، والأُخرى عند زمزم، و على الحاج أن يبدأ طوافه أوّلاً من إساف و بعد أن يستلم الحجر الأسود و يختم طوافه، يستلم الحجر الأسود مرة ثانية، و بعد ذلك ينتهي طوافه باستلام نائلة.

و حسب تقاليد المشركين لم يكن طواف الحج و العمرة تعبدياً دائماً، إنّما كان أحياناً للتعبير عن الغضب و الشر و إشهاد البيت على ظلم الأعداء.

«نقل أنّ أبا جُندب بن مُرّة القِرْديّ كان له جار من خُزاعة اسمه خاطم، فقتله زُهير اللحياني و قتلوا امرأته، فلمّا برأ ابو جندب من مرضه خرج من أهله حتّى قدم مكّة، فاستلم الركن و كشف عن إسته و طاف، فعرف النّاس أنّه يريد شرّاً»[٥٨].

كان السعي بين الصفا والمروة جزءاً من الطواف عند الحُمْس وربما عند غيرهم، ولكن لم يؤده جميع المشركين.

و كان السعي بين الصفا و المروة من شعائر الخليل (عليه السلام) إلّا أنّه ترك و مسخ، و بعد ظهور الاسلام و فتح مكة أمر رسول‌الله (صلى الله عليه و آله وسلّم) بادائه إذ قال تعالى:

(إنّ الصَّفَا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللهِ، فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا...)[٥٩].

الهوامش

١ ـ الوثنية في الأدب الجاهلي، الدكتور عبد الغني زيتوني: ٢٧٣.
٢ ـ الحج: ٢٦ ـ ٢٧.
٣ ـ تاريخ العرب قبل العروبة الصّريحة في جزيرة العرب، محمّد عزة دروزة: ١١٥ ـ ١١٦.
٤ ـ Booth, the historical library of diodorus the sicilian P.105
٥ ـ تاريخ العرب في الاسلام: ٤٥ ـ ٤٧.
٦ ـ نفس المصدر: ٤٧ ـ ٤٨.
٧ ـ تاريخ الجاهلية، الدكتور عمر فرّوخ: ١٠٩.
٨ ـ الشورى: ٧.
٩ ـ محمّد: ١٣.
١٠ ـ الزخرف: ٣١.
١١ ـ Encyclopaedia of religion and ethics, by Hasting Vol. 8, p. 511
١٢ ـ مروج الذهب ٢: ١٦٤.
١٣ ـ تاريخ العرب في الاسلام: ٤٨ ـ ٤٩.
١٤ ـ البقرة: ١٤٤.
١٥ ـ كتاب الاصنام، ابو منذر هشام بن محمّد الكلبي: ٦.
١٦ ـ نفس المصدر.
١٧ ـ نفس المصدر.
١٨ ـ الوثنية في الادب الجاهلي: ٢٨٢ ـ ٢٨٤ و اسواق العرب في الجاهلية و الاسلام، سعيد الافغاني: ٢٤٩ ـ ٢٥٠.
١٩ ـ البيان و التبيين، الجاحظ ٣: ٩٥.
٢٠ ـ ديوان امية بن أبي الصلت: الدكتور عبد الحفيظ السلطي: ٥١٨.
٢١ ـ في طريق الميثيولوجيا عند العرب، محمّد سليم الحوت: ١٥٠.
٢٢ ـ معجم البلدان ٤: ١١٧.
٢٣ ـ Encyclopaedia of Islam vol, 3. p. 32.
٢٤ ـ الوثنية في الادب العربي: ٢٨٧.
٢٥ ـ نفس المصدر: ٢٨٩.
٢٦ ـ السيرة النبوية لابن هشام ١: ١١٩.
٢٧ ـ صحيح البخاري ٢: ٢٠١.
٢٨ ـ اخبار مكة ٢: ١٥٤.
٢٩ ـ الوثنية في الادب الجاهلي: ٢٩٣
٣٠ ـ السيرة النبوية لابن هشام ١: ١٢٠.
٣١ ـ المفضليات، الضّبي: ١١١.
٣٢ ـ معجم الشعراء، المرزباني: ٢٩٤.
٣٣ ـ تاج العروس ٣: ٤٨٦.
٣٤ ـ كتاب الاصنام: ١٤.

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-05-03]
[DOR: 20.1001.1.23834269.1415.6.12.3.3]

٣٥ ـ السيرة النبوية لابن هشام ١: ١٩٩.
٣٦ ـ المحبّر، ابن حبيب: ١٧٨.
٣٧ ـ القاموس المحيط، مادة حمس.
٣٨ ـ البقرة: ١٩٩.
٣٩ ـ المحبّر: ١٨٠ و السيرة النبوية لابن هشام ١: ٣٠٢.
٤٠ ـ البقرة: ١٨٩.
٤١ ـ الوثنية في الأدب الجاهلي: ٣٠٤ ـ ٣٠٥.
٤٢ ـ السيرة النبوية لابن هشام ١: ٢٠٢.
٤٣ ـ المحبّر: ١٨٠.
٤٤ ـ الوثنية في الأدب الجاهلي: ٣٠٨.
٤٥ ـ المحبّر: ١٨١.
٤٦ ـ صحيح البخاري ٢: ١٧٠ ـ ١٧٥.
٤٧ ـ الوثنية في الادب الجاهلي: ٣١٣، نقلاً عن اخبار مكة.
٤٨ ـ نفس المصدر: ٣١٥.
٤٩ ـ نفس المصدر: ٣١٩ و the life of muhammad, A. H. Siddiqui p. 31
٥٠ ـ كتاب الاصنام: ٧.
٥١ ـ يوسف: ١٠٦.
٥٢ ـ اخبار مكة، الازرقي ١: ٧٥.
٥٣ ـ تاريخ اليعقوبي ١: ٢٩٦.
٥٤ ـ الانفال: ٣٥.
٥٥ ـ السيرة النبوية لابن هشام ١: ٢٠٢.
٥٦ ـ الوثنية في الادب العربي: ٢٣٩ ـ ٢٤٠.
٥٧ ـ الاعراف: ٣٠.
٥٨ ـ خزانة الأدب، البغدادي ١: ٢٩٢.
٥٩ ـ البقرة: ١٥٨.

المصادر

أخبار مكّة، الأزرقي (مكّة المكرمّة، الماجدية، ١٣٥٢).

أسواق العرب في الجاهلية و الإسلام، سعيد الأفغاني (دمشق، ١٩٢٧).

البيان و التّبيين، ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق و شرح عبد السّلام محمد هارون (بيروت، دار الفكر، ١٤١٠).

تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن مرتضى الزّبيدي (بيروت، دار مكتبة الحياه، بدون تاريخ).

تاريخ الجاهليّة، الدكتور عمر فرّوخ (بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٤).

تاريخ العرب في الإسلام، الدكتور جواد عليّ (بيروت، دار الحداثة، ١٩٨٤).

تاريخ العرب قبل العروبة الصّريحة في جزيرة العرب، محمّد عَزّة دَرْوَزَة (صيدا، المكتبة العصرية للطّباعة و النّشر، ١٣٧٦).

تاريخ اليعقوبي، ابن واضح اليعقوبي (بيروت، دار العراق، ١٩٠٠).

خزانة الأدب و لُبّ لُباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي، تحقيق و شرح، عبد السّلام محمد هارون (القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٤٠٩).

ديوان أمية بن أبي الصلّت، جمع و تحقيق و دراسة، الدكتور عبد الحفيظ السطلي (دمشق، مكتبة أطلس، ١٩٧٧).

السّيرة النّبوية، لإبن هشام، تحقيق، مصطفى السقا، ابراهيم الأبياري، عبدالحفيظ شلبي (القاهرة، البابي الحلبي، ١٩٥٥).

صحيح البخاري، محمّد بن إسماعيل (القاهرة، مطابع دار الشعب، ١٣٧٨).

في طريق الميثولوجيا عند العرب، محمود سليم الحوت (بيروت، دار النّهار للنشر، ١٩٨٣).

القاموس المحيط، الفيروزآبادي (بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٦).

كتاب الأصنام، أبو منذر هشام بن محمّد الكلبي، تحقيق، أحمد زكي باشا (القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٢٤).

المُحَبَّر، أبو جعفر محمّد بن حبيب، تصحيح، الدكتورة إيلزه ليختن شتيتر (بيروت، دار الآفاق الجديدة، بدون تأريخ)

مُروج الذهب و معادن الجوهر، المسعودي، تحقيق و تصحيح، شارل پلّا (بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية، ١٩٦٥).

معجم البلدان، ياقوت الحَموي، تحقيق فريد عبد العزير الجُندي (بيروت دار الكتب العلمية، ١٤١٠).

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-05-03]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1415.6.12.3.3]

معجم الشّعراء، المرزباني، أبو عبيدالله محمّد بن عـمران، تحقيق، عبد الستار أحمد فراج (دمشق، مكتبة النوري، بدون تاريخ).

المفضّليّات، المفضّل الضّبّي، تحقيق و شرح، أحمد محـمد شاكر، عبد السلام هارون (القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٦).

الوثنية في الأدب العربي، الدكتور عـبد الغـني زيـتوني (دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٨٧).

Encyclopaedia of Islam (Leiden, E. j. Brill, 1986)

Encyclopaedia of religion and ethics, by James Hasting (Edinburgh, T. & T. clark, 1980)

The life of Muhammad, AbdulHameed SiddiQui (Islamic publication Limited Pakistan, 1981).

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-05-03]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1415.6.12.3.3]